الخلاصة

مصير العالم من مصير الهند

كان المهاتما غاندي يؤمن بشدة بقدرة الشعب. وكانت قوة المجتمع الهندي بالنسبة إلى غاندي تكمن في أفراده الأكثر تواضعاً. كانت رؤيته المثالية بالنسبة للهند تتجلى في أمة تضم قرى تتمتع بالاكتفاء الذاتي، ويعيش فيها مواطنون يحظون بمعاملة منصفة، وتحكمها الهيئة السياسية المنتمية للبلاد، أي المجالس المحلية للقرى، «بانتشايات». ومما يثير الاستغراب أنه وبينما تهرع الهند لاحتضان ثقافة استهلاكية، فإن أفكار غاندي عن سياسة الاحتواء وتعميق الديمقراطية لتشمل المشاركة الكاملة للفقراء، آخذة في الانتشار بدلاً من أن تفقد زخمها، وقال لي تي.سي رامادوراي: «إن ما ترينه الآن في الهند هو نوع من الحساسية الجديدة لنشر الثراء، ليس فقط في الطبقة العليا، وإنما في الطبقة الوسطى التي تتوسع داخل المناطق الريفية».

كان غاندي يؤمن بأن منطق التكنولوجيا التي يتم تطويرها إكراماً للتكنولوجيا أدت بشكل حتمي إلى الدمار. وكان يلتقي في هذا الرأي مع الفيلسوف الألماني مارتين هايدغر وعالم الفيزياء الأمريكي روبرت اوبنهايمر مخترع القنبلة الذرية. وكما أدرك اوبنهايمر، بعد فوات الأوان، فإنه حالما يخرج الجنِّي من الزجاجة، فليس هناك من طريقة لإعادته إليها. وحالما يتم اختراع تقانة ما، فثمة احتمال بأن يجري استغلالها.

لقد زيّن دولاب غزل الخيوط الذي كان يعمل عليه غاندي وسط العلم الوطني لحزب المؤتمر. ويستمر الهنود في احتضانه رمزاً لنضال بلادهم من أجل الاستقلال. إلا أن معظمهم يرفضون، كلياً، رسالته عن التكنولوجيا. وكان غاندي قد حذر بأن التكنولوجيا تميل إلى توليد رغبات ترضي من يمليها بدلاً من إرضاء الحاجات البشرية. وكان رد غاندي

على هذا الأمر أن يحرم نفسه وحياته، بالفعل، من كل شيء لم يكن من نتاج أبسط وسيلة تكنولوجية ممكنة.

كان جدي الهندي من أتباع غاندي المتشددين، باعتبار أنه كان منخرطاً في الحركة السودايشية لاستقلال الهند في شبابه. كنا جميعنا ندعوه «باپوجي» Bapuji، وهو الاسم المحبب ذاته الذي ينم أيضاً على الاحترام والتقدير، الذي كان يطلقه أتباع غاندي المقرّبين منه على المهاتما. وهو يعني شيئاً أشبه «بالأب المحترم». ومهما كان حجم المال الذي يجنيه هو أو الذي يجنيه أولاده، فقد كان «باپوجي» الذي يمتُّ لي بصلة القربى يرتدي دائماً الـ «كادي دوتي» «Khadi dhoti» وهو قماش فضفاض مصنوع من القطن المنسوج في المنزل يرتديه الرجال الهنود، لتشكيل نمط من السراويلات الفصفاضة. كنت أحب الجلوس على الهيكل الحديدي القديم للسرير الموجود في غرفة نومه في جوهو، وفي الخلفية بث لإذاعة صوت أميركة أو الـ «بي. بي. سي» على جهاز الراديو، والاستماع إلى كلمات جدي الحكيمة. قال لي باپوجي: أنا حفيدته الأمريكية، مرات عديدة «يجب عليكِ أن تسيطري على التكنولوجيا. لا تدعي التكنولوجيا تسيطر عليكِ. لا تستخدمي إطلاقاً أية آلة لا تستطيعين تفكيكها وإعادة تركيب أجزائها معاً بنفسك».

ونظراً إلى كون التخلي عن استخدام كل نوع تقريباً من الآلات والأجهزة أمراً غير عملي بشكل جلي فيما لو تم تطبيق هذا المبدأ فعلياً، فقد عُدّت آراء غاندي حول موضوع التكنولوجيا تافهة، وجرى التقليل من أهميتها. وهي، في الواقع،آراء متعمقة ولا تزال حية في مفهوم التكنولوجيا الصحيحة.

وقال لي روبين أبراهام: «إن الناس يميلون إلى التعلق بالتكنولوجيا ويولعون بها. وهم يخفقون في إدراك أن التكنولوجيا هي وسيلة من أجل الوصول إلى غاية، وليست الغاية بحد ذاتها: فالكهرباء لا تفعل شيئاً بمفردها. إن ما تفعلينه أنت بالكهرباء هو الأمر المهم». ويعمل روبين على تأسيس مبادرة مشتركة من أجل التنمية المستدامة بالتعاون ما بين جامعة كورنيل وكلية إدارة الأعمال في مدينة حيدر آباد. وقد سألني: كيف تحظون بهذا النوع من التطور من دون تدمير البيئة؟ إذا ما تطورت الهند والصين مثلما تفعل الولايات المتحدة، فإننا جميعنا سنواجه مشكلات خطيرة. ولابد للاستدامة من أن تكون متركزة

في آليات المشروعات التي تقوم بها الشركات. لا يمكنك أن تقومي بتنفيذ المشروعات في هذه الناحية أولاً، ثم تفكرين في الاستدامة، في الناحية الأخرى. فهذا لن يكون مفيداً كثيراً لتحقيقها».

ويقوم رؤساء الشركات الهنود من أصحاب الأفكار المتبصرة، وكما رأينا، بتشكيل نموذج جديد لنظام رأسمالي شمولي مستدام ربما يكون أفضل أمل لنا من أجل مستقبل يتهدده الاحتباس الحراري العالمي وأوضاع مؤلمة من الظلم وغياب المساواة. وتستند جهودهم إلى الحقائق المريرة التي تعيشها الهند اليوم. وكان الدكتور شيتي قد سألني: لماذا ستقدم الهند على تحقيق هذا التغيير الهائل؟ وتابع قائلاً: «سوف أخبرك. نحن بارعون في إنشاء المؤسسات، والمال وحده لن يفعل شيئاً. وهذه هي اللحظة المناسبة بالنسبة للهند».

وكما قالت لي روهيني نايلكاني زوجة ناندان نايلكابي، وهي امرأة شديدة الالتزام بالعمل على إحداث تغيير اجتماعي في الهند وإنقاذ بيئة البلاد: «الكثيرون منا يحاولون تشريح هذا الوحش المسمى الفقر، فهو يتجسد في عدة أشكال. وهناك في الهند ثلاثة ملايين شخص يعيشون بأقل مما يكفيهم من الطعام. وقالت بلهجة تحذيرية: «قد يحدث أي شيء، لذا علينا أن نسأل أنفسنا كيف يجدر بنا أن نتدبر صناعة القرار في هذه البلاد. إننا نجد في مواقع العمل من أجل تعميق الديمقراطية».

وتؤثر في هذه الجهود أيضاً نهضة ثقافية تبحث عن إعادة تعريف معنى أن تكون هندياً في القرن الحادي والعشرين. وقال لي باڤان ڤارما مؤلف كتاب: «أن تكون هندياً» ورئيس «المجلس الهندي للعلاقات الثقافية» «إن حافز الطموح هائل جداً، وهو يتجسد في الرغبة في إيجاد مكان تحت الشمس إلا أننا بحاجة إلى مفهوم لاحترام الذات ليس مشتقاً فقط من القدرة الاقتصادية المتزايدة. فثقافتنا لم تولد بالأمس. وعلينا أن نغوص في هذه الثقافة، وأن نرتقي بها إلى المستوى العالمي. من جانبه، عبر كاران غروڤر المهندس المعماري المتخصص في تصميم مشروعات صديقة للبيئة، عن وجهة نظره مؤكداً أن «ما أريد أن أقوله في النهاية هو أننا نمتلك الموارد، ونمتلك المشروعات اللازمة لكي تنقلنا إلى مكان آخر».

الهند نظام ديمقراطي معقد، ومشاكس، وغالباً ما يكون متنافراً، وتتعارض فيه وجهات النظر والتصورات، وتشتد المنافسات. ومع ذلك فقد وجدت إجماعاً مذهلاً حول مفاهيم الشمولية والاستدامة متأصلة في التراث الثقافي الفريد للهند.

غير أن هناك هنداً أخرى: الهند التي تقبلت بحماس فكرة تفجير جهاز نووي بوصفه نصراً محققاً وتعبيراً قوياً عن لا مبالاتها برأي الآخرين، الذين يرغبون في إبعاد هذه الدولة العظيمة عن نادي الدول التي تمتلك أسلحة نووية؛ الهند التي تنفق على المشتريات العسكرية أكثر مما تنفقه أية دولة متقدمة أخرى، بينما يتضور مئات الملايين من شعبها جوعاً. وقد سميت صواريخ الهند بأسماء غزاتها الفاتحين مثل صاروخ «بريثفي» Prithvi تيمناً باسم الحاكم بريثفي راج تشوهان الذي عاش في القرن الثاني عشر. كما يطلق على صواريخ الهند أسماء العناصر فهناك: صاروخ (آغني Agni) وتعني النار و(آكاش Akash) وتعني السماء. وآغني هو أيضاً اسم آلهة النار عند الهندوس. أما الصاروخ تريشول Trishul فقد سمي باسم السلاح الذي كان بحوزة الآلهة سيفا Siva. هذه هي الهند التي جاءت في السطور التي اقتبسها روبرت اوبنهايمر من كتاب «Bhagavad Gita»* لدى إدراكه أهوال ما تم إطلاقه بوساطة القنبلة الذرية: «الآن أصبحت أنا الموت، مدمر العوالم». وكانت الهند قد تعهدت بأن يكون برنامجها العسكري، وهذا يشمل الأسلحة النووية، مخصصاً لأغراض دفاعية فقط، ولكن ما من شك أن هناك سباقاً للتسلح قائماً في جنوب آسية وأن المنطقة هي من أخطر المناطق في العالم.

كانت أنهار وغابات الهند القديمة مليئة بالأسپاراس Apsaras، أي حوريات الماء والغابات اللواتي كانت رقصاتهن وأُغنياتهن تخلب الألباب مع حسنهنّ وجمالهنّ. وتزين الأشكال المتوية للحوريات أعمدة المعابد في كل أنحاء الهند، وهنَّ يمثلن مع التفاف أطرافهن الناعمة باتجاه السماء، نسغ الحياة بحد ذاتها. وفي نظرية نشوء الهند التي يتبناها الهندوس، تعد الأنهار من الآلهة: نهر الغانغا، السابراماتي، النارمادا، الساراسواتي الذي يسيل في باطن الأرض حالياً. وقد قادت النساء في الهند أكثر الجهود دأباً لإنقاذ بيئة البلاد من الدمار

* ومعناها باللغة السنسكريتية «أغنية الرب» وهو كتاب مقدس لدى طائفة الهندوس، ويعد أكثر الأعمال الأدبية الخالدة تمحوراً حول الدين في العالم. وهو يضم سبعمئة بيت من الشعر للمعلم الروحي كريشنا. (المترجمة)

المتعمد الذي تتسبب فيه عمليات الاستغلال، التي لا تخضع لأية مراقبة. وكانت النساء من عضوات «حركة تشيبكو» قد لففن أجسادهن حول الأشجار في عناق رقيق من أجل إنقاذها من منشار قاطع الأخشاب. وكل الناشطات البارزات في مجال البيئة في الهند من النساء: ميدها باتكر، التي كافحت ضد إقامة سد على نهر نارمادا؛ سونيتا ناريان من مركز العلوم والبيئة التي حازت على جائزة «مؤسسة ستوكهولم للمياه» لعام 2005، وأروندااتي روي، التي لم تتوقف عن الكتابة، وحملت لواء الدفاع عن عدد من القضايا، وڤاندانا شيڤا التي تصف نفسها بأنها من النساء المدافعات عن البيئة التي تناضل من أجل الزراعة المستدامة.

ومن البنك الدولي إلى هيئات الأمم المتحدة إلى المنظمات غير الحكومية الرائدة، هنالك توافق على أمر واحد: هو أن الأساس للقضاء على الفقر، والجهل، وعلى تدمير البيئة والأمراض المتفشية في الهند بما فيها وضع حد لوباء الإيدز، الذي ينشط بسرعة كبيرة، قائم في تمكين المرأة وتعزيز وضعها، وهذا يقال بشكل سهل، وتحقيقه أقل سهولة، ونادراً ما تتم الإحاطة بكل تأثيراته ومعانيه الضمنية.

منذ أكثر من عام بقليل أدليت بحديث في نيودلهي إلى مجموعة من المحللين العسكريين والسياسيين الهنود الكبار حول ميزة السلطة اللينة في الهند. كان هناك العديد من الجنرالات المتقاعدين موجدين في الغرفة؛ وعدا عن وجود مساعدة تعمل في مجال البحوث العلمية، كنت أنا المرأة الوحيدة الحاضرة. وقد رغب أحد السادة بالحصول على بعض التوضيح قائلاً: «السلطة اللينة لا تعني إذن دولة ضعيفة»، فأجبت: لا، إنها لا تعني ذلك لقد كانت الامبريالية تتمحور دائماً حول تفريغ القوة وإضعافها. ومع أن مذهب اللاعنف الراديكالي الذي تبناه غاندي، والذي أظهر عجز القوة الغاشمة، وأنهى الحكم الإمبريالي، فقد ناضلت الهند في العقود التي تلت من أجل تأكيد كفايتها بوصفها سلطة قاسية، وتوج ذلك بامتلاكها للأسلحة النووية.

وتمتلك الهند في متناول يدها جميع العناصر التي تحتاجها لكي تضع تصوراً لمسار مختلف؛ ولأنها ما تزال دولة نامية، فإن بإمكانها أن تختار أن تتطور بصورة مختلفة. فالهند ليست مضطرة لأن تتبع بصورة عمياء النموذج الأمريكي للشركات الزراعية، وأن تصبح دولة أخرى من دول الوجبات السريعة. وهي ليست مضطرة لأن تسمح لتركيبة عسكرية-صناعية بأن تملي الأولويات الوطنية. وهي بإمكانها -ويجب عليها- أن ترسم طريقها

الخاص، وإلا سيؤدي بنا جميعنا عالم متهور، يعتمد على الاستهلاك من أجل الاستهلاك، وأباطيل فن التفوق عسكرياً على الآخرين، إلى غياهب النسيان.

ويجب على الولايات المتحدة أن تقوم أيضاً بدورها، إن لم يكن من أجل الهند، فليكن إذن من أجل أنفسنا، لأن بقاءنا يعتمد على نجاح الهند. فنحن جميعنا داخل العالم المترابط الذي نعيش فيه معرضون في النهاية للإصابة بأمراض وبائية، وللاحتباس الحراري العالمي، ولانهيار النظام العالمي القديم، ولإثارة شكوك إزاء ما سوف يحل محله. وبإمكان الأمريكيين أن يبدؤوا بإجبار حكومتنا على الانضمام إلى بقية العالم في التصدي بشكل مباشر وبأمانة للمشكلة الملحة المتمثلة في الاحتباس الحراري العالمي، والإقرار بإسهامنا غير المتناسب مع وضع ينطوي على احتمال الخروج بعواقب مدمرة بالنسبة للبشرية. ويطرح الكاتب الهندي راماتشاندرا غورها، المتخصص بشؤون البيئة سؤالاً عبر عنوان كتابه الجديد: ما مقدار الكمية التي يجب أن يستهلكها الإنسان؟ وهو سؤال يطرح في الوقت المناسب تماماً، وسؤال أخلاقي للغاية.

وبإمكان الأمريكيين أيضاً أن يبدؤوا بالتشكيك في حالة الفوضى المتضخمة التي أصبحت عليها تركيبتنا الصناعية -العسكرية- حسبما كان قد حذر الرئيس دوايت دي.أيزنهاور منذ نصف قرن تقريباً - بقيامها بفرض أولويات في السياسة كلفتنا غالياً بالأرواح والأموال. وإذا ماكنا نشعر بالقلق إزاء توصل الصين إلى عقد صفقة أسلحة نووية مع باكستان، فعلينا ألا نلوم سوى أنفسنا لقيامنا بفتح ذلك الباب من دون سبب أخلاقي وجيه ندّعيه.

وفي العام الماضي ضاعفت الشركات الأمريكية الموردة للأسلحة التي تشكل الآن الشركات الرئيسة لبيع السلاح في العالم، من مبيعاتها إلى الحكومات الأجنبية لترتفع من (10.6) مليارات دولار إلى (21) ملياراً. وجاء جزء كبير من الزيادة من مبيعات الأسلحة إلى باكستان، بما في ذلك طلب لشراء طائرات نفاثة مقاتلة من طراز F-16 بمبلغ (5) مليارات دولار. ومع الموافقة على صفقة الأسلحة النووية بين الهند والولايات المتحدة أصبحت الهند إحدى الأسواق التي تضم أكبر الإمكانيات لتحقيق الأرباح بالنسبة لمتعهدي الأسلحة الأمريكيين الذين يحرقون وقود الطائرات النفاثة في رحلاتهم الشاقة الطويلة إلى شبه القارة الهندية من أجل التباهي بمنتجاتهم.[1] ومع تسابق الولايات المتحدة والصين من

أجل تثبيت الصفقات وبيع الأسلحة والتكنولوجيا النووية إلى كل من الهند وباكستان، تتقدم منطقة جنوب آسية في طريقها للاحتفاظ بلقب البطولة على مدى العقود القادمة كإحدى أخطر الأماكن على وجه الأرض.

إنني أعتقد أنه لا يمكن للولايات المتحدة أن تتفوق على الصين على المدى البعيد في المقدرة العسكرية والاقتصادية الهائلة: وسيفضي السباق إلى تحقيق ذلك إلى تدمير بيئتنا وإلى تدمير مجتمعنا. إن بإمكاننا أن نتغلب على الصين -أو بالأحرى أن نسعى وراء ذلك- إذا ما أعدنا ترتيب أولوياتنا وعدنا إلى جذورنا بوصفنا حكماً من الشعب، وبالشعب وللشعب، قادراً على تأكيد السلطة الأخلاقية في ميدان القضايا العالمية بضمير مرتاح.

وتمتلك الهند والولايات المتحدة، وهما دون ريب، اثنتان من أكبر النظم الديمقراطية الكبرى في العالم، فرصة حقيقية لتذكير بعضهما بالمبادئ والأسس الأخلاقية للحظات تأسيسنا والمتعلقة بكل واحد منا؛ وللابتعاد عن نزعة التسلط العسكري المستشرية وإنقاذ بيئتنا. إن بمقدورنا أن نسهم في إيجاد نظام عالمي جديد مسخّر للسعي وراء الحياة، والحرية، والسعادة، ولضمان العدالة والحياة الكريمة لكل رجل ولكل امرأة. إن الاستمرار في العمل كالمعتاد هو انتحار، وهو خيار -كما ذكّرنا جيرد دايموند- قامت به أكثر من حضارة واحدة في مسيرة التاريخ المتعرجة غير أن العالم بأكمله في خطر هذه المرة. ولابد لنا من ألاَّ نسمح للقدرات الخيالية الإبداعية أن تخذلنا في الوقت الحاضر.

وإذا كان لنا أن نبقى أحياء بوصفنا كوكباً، فإننا نحتاج إلى أن تقوم الهند باستدعاء مجموعة جديدة من الأفكار والمواقف الأخلاقية المميزة، من ماضيها الثقافي السحيق -كما يفعل عدد كبير جداً من الأفراد الرائعين، الذين تم إعطاء نبذة عنهم في هذه الصفحات- وسيكون في هذا نهضة الهند، وخلاصها مرة واحدة وإلى الأبد من نير التبعية للغرب، وعودة ظهورها المظفرة كدولة عظمى فعلاً.

ثم، وفي حال حالفنا الحظ، فإن رحلة الهند لاختراع الذات سوف تعيد اختراع العالم.